الفصل الثاني

نرجسية المتنبي.. واغترابه النفسي

- توطئة: الاتجاه النفسي.. في النقد القديم والمعاصر..
- المتنبي... إنساناً وشاعراً..
- نرجسية المتنبي وبواعثها..
- الاغتراب النفسي وعلاقته بنرجسية المتنبي..
- إعلاء شأن ذاته..
- الفخر بالأنا الشاعرية:
- شكوى المتنبي.. في نرجسيته واغترابه النفسي..

❑ توطئة: الاتجاه النفسي.. في النقد القديم والمعاصر

من يتأمل المنجز النقد القديم يتيقن التفات بعض النقاد إلى الاتجاه النفسي في دراساتهم المعنية بالمصطلحات والقضايا النقدية من جهة، وأثره في استجابة المتلقي من جهة أخرى.

من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما أودعه بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) في صحيفته - الذائعة الصيت- بشأن اللفظ والمعنى ولاسيما قوله: «من أراغ معنىً كريماً، فليلتمس له لفظاً كريماً... وإنما مدار الشرف على الصواب، إحراز المنفعة [أي التأثير] مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال... وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات»[١].

وعني نقاد آخرون بافتياحيات القصائد وخواتيمها من الوجهة النفسية، منهم ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ) وذلك في نص هذا الرأي «إن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح [أي الاستجابة]... وأن خاتمة الكلام [الشعر] أبقى في السمع، والصق بالنفس، والأعمال [القصائد] بخواتيمها[٢].

وآثر حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) البعد النفسي في مفهومه للشعر وقيمته إذ يرى أن «الشعر من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على الهرب منه». ويضيف في التوجه نفسه: «ومما تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع، أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالاً، ويعتبر لها حالاً، من تعجيب أو تهويل وتشويق أو غير ذلك»[٣].

فضلاً عن نقاد قدماء آخرين لجأوا في نقدهم إلى الاتجاه بالنفسي في هذه القضية النقدية أو تلك.

وفي العصر الحديث، ازداد النقاد اهتماماً بنقد الشعر والشعراء، ضمن معايير المنهج النفسي الذي برز مستقلاً ومرتبطاً -في الوقت نفسه- ببقية المناهج النقدية

الآخر، وذلك بعد إطلاعهم على منطلقات رواد مدرسة التحليل النفسي (فرويد) و(يونج) بخاصة، اللذين أوليا اهتماماً بأثر اللاشعور (الفردي) تارة و(الجمعي) تارة أخرى في سلوك المرء ومواهبه وفنونه وإبداعاته[٤]، ثم أخذت الدراسات النقدية تترى في رصدها فنون الأدب بعامة، والشعر بخاصة من منظور المنهج النفسي. الموجزة معاييره بالآتي:

- عد النتاج الفني أو الأدبي أو الشعري وثيقة نفسية لدراسة الفنان وفهمه، وما يكتنفه من عقد وأمراض نفسية.

- الإفصاح عما يختلج (المبدع) من عواطف وأحاسيس ومشاعر، تستشف أبعادها من نتاجه، بكلمة أدق تحديد ماهية الشعور النفسي الباعث على الإبداع في هذا الفن وذاك.

- العناية بأسلوب المبدع في نتاجه الفني، انطلاقاً من القول المأثور (الأسلوب هو الرجل) إذ تتباين الأساليب بحسب اختلاف الطبائع التي تنزع إلى المشاعر النفسية التي يخضع لها المبدع[٥].

- مدى تمكن الفنان أو المبدع من إبراز مشاعره النفسية في هذا النتاج أو ذاك، أو نقله للمشاهد المحيطة به، بما تتضمنه من عواطف تؤثر في نفس المتلقي، وتحقق استجابته ومتعته وفائدته.

حتى قيل في هذا الشأن: «إن قيمة الإبداع لا تتركز في مشاعرنا فحسب، ولكن فيما نصنع في مشاعرنا من صور»[٦].

وذلك كله أسهم في اهتمام النقاد والباحثين بدراسة الشعراء من منظور المنهج النفسي ولاسيما من كانوا متفردين في سلوكهم وتوجهاتهم ومعاناتهم من عقد نفسية، ومشاعر مضطربة، وقلق دائم، ومخاوف محيطة بهم، فنطالع -في هذا الشأن- من عمد إلى الإحاطة بمن كان يئن من وطأة لون بشرته السوداء التي ورثها عن أمه

الحبشية، وقد اصطلح على تسميتهم بـ«الشعراء السود أو الأغربة» الذين كانوا أسوأ الهجناء حظاً، وأدناهم منزلة اجتماعية، بارزة تلك المعاناة في جل نتاجهم الشعري.. ومن أبرز أولئك الشعراء: عنترة العبسي، والسليك بن السلكة، وخفاف ابن ندبة، في العصر الجاهلي[٧].

وعني نقاد آخرون بشخصية الشاعر المعاني من عقدة النسب، وسيلة وغاية لفهم نتاجه الشعري وتحليله ونقده.. وكان (الحطيئة) أنموذجاً لأولئك النوع من الشعراء، المكثر من هجائياته من جهة، واتخاذه الشعر متجراً للتكسب تعويضاً لتلك العقدة النفسية من جهة أخرى[٨].

ولا نغفل أيضاً الشعراء الصعاليك ومعاناتهم النفسية من جراء فقدان هويتهم القبلية لهذا السبب أو ذاك، ويبدو الشنفرى وتأبط شراً، وقيس بن الحدادية أمثلة معبرة عن هذه الطائفة من الشعراء[٩].

وهناك الشعراء العذريون المشتهرون بعشق امرأة واحدة حتى الموت، وما كانوا يعانونه من اضطراب نفسي وقلق وتوجس من عشقهم وصبابتهم وهيامهم، منهم شعراء جاهليون، وآخرون إسلاميون، من أبرزهم المرقش الأكبر، وجميل بثينة، وكثير عزة وغيرهم[١٠].

ومن تصح دراسته من الوجهة النفسية (أبو نواس) الشاعر العباسي، الذي كان مولعاً بحب الخمر، والتلذذ بشربها، وارتياحه لطعمها، وسروره بفعلها في نفسه، حتى كانت الشغل الشاغل له في صباحه ومسائه، وذكرها في أشعاره، حتى فاق نظراءه المتقدمين عليه، منهم الأعشى والأخطل[١١].

وينفرد (ابن الرومي) لا بشاعريته فحسب، إنما بتشاؤمه وتطيره في ليله ونهاره من كل ما حوله، حتى قيل إنه «رجل غريب الأطوار والأدوار، وكان يتشاءم من الناس والأسماء والأحداث» وذلك مسوغ لنقد شعره من المنظور النفسي[١٢].

ويضاف إلى تلك الطوائف من الشعراء المتنبي الذي فاق الشعراء المتقدمين عليه، والمعاصرين له، واللاحقين بعده بنرجسيته التي كانت طاغية في خطاباته الشعرية، وهي لا تعدو سوى عقدة نفسية لازمته طوال حياته في بعديها الإنساني والشعري، وهو ما يغدو موضع اهتمامنا -في هذا المقام-.

□ المتنبي... إنساناً وشاعراً:

قبل ولوج بواعث نرجسية المتنبي وتشظياتها نستعرض بإيجاز واف سيرته، لما لها من اثر في تحليه بالنرجسية، مبتدئين باسمه (أحمد) وكنيته (أبو الطيب) ولقبه (المتنبي). المولود مطلع القرن الرابع للهجرة، وتحديداً عام ثلاثة مئة وثلاثة، في الكوفة في حيّ يقال له كندة، أبوه (الحسين بن الحسن بن عبد الجعفي) كانت مهنته بيع الماء في أحياء الكوفة، ومنها جاء لقبه (عبدان السقاء)[١٣].

وما أن بلغ المتنبي عقده الأول حتى ألحقه أبوه بكتاتيب الكوفة ليتلمذ على شيوخ يشار إليهم بالبنان.. ولينهل منهم تراث العرب الأدبي وعلوم العربية وقواعدها[١٤]، ثم أرسله وهو في سن الفتيان إلى البادية ليصاحب الأعراب، طمعاً في مداد من الفصاحة والبلاغة والبيان[١٥]. وبعد ذلك حثه على السفر إلى الشام، منتقلاً بين بواديها وحواضرها، زيادة في التحصيل والمعرفة[١٦]، وخلال هذه المسيرة بدأت علائم موهبته الشعرية تتنامى في آفاق إبداعية منذ تجاوزه العقد الثاني من عمره، وبدأت تصدح قريحته في البيئات التي كانت ديدنه في الحل والترحال، بدأها من العراق إلى الشام، ومصر، وبلاد فارس، منشداً في رجالات تلك البيئات أروع القصائد في شتى أغراض الشعر.. ولاسيما سيفياته في سيف الدولة الحمداني في حلب من بلاد الشام -على سبيل المثال لا الحصر-[١٧].

ولكن الحقيقة التي يجب أن يشار إليها، أن جل شعره المديح منه بخاصة، كان بدوافع الحصول على مكسب ذاتي لا يعدو سوى تقلده موقعاً قيادياً أو سلطة كان ينشدها وذلك ما صرح به في قوله:

يقولون لي ما أنت في كل بلـــدة وما تبتغي مـــا ابتغـــيُ جـــلّ أن

فهو يرى أن أفعاله أو قل (عبقريته الشعرية) وتراكمه المعرفي ســـيان القليـــل والكثير منه مصروفة في طلب المجد والجاه والسلطان.. وهذه جده في طلبه يعد حظاً سواء نال مطلوبه منه، أو لم ينل، فهو يسعى إليه بما أوتي من علو النفس، وشـــرف الهمة، وذلك هو الحظ الذي يعدمه في جميع الأحوال مصرحاً بهذه الغاية في قوله:

أقل فعالي بَلْـــه أكثـــره مَجْـــدُ وذا الجد منه نلت أم لم أنل جَدُّ[١٩]

ويصرح في خطاب شعري آخر عن دواعي أشعاره أو رحلاته التي لا تعـــدو سوى طلب المعالي، وأن تحمل من خلالها ركوب المسالك الوعرة التي يشق قطعها، ولذا فهو صابر من أجل تحقيق أمنياته قائلاً:

ولي همة من رأي همتـــها النـــوى فتركبني من عزمها المركب الوعرا[٢٠]

حتى إن مدائحه لرجالات الدول التي كان يرحل إليها، يتخذها وسيلة لغايـــة في نفسه، والدليل على ذلك أنه كان يبدأ في أول حلوله في هذه المدينـــة أو تلـــك بمدح صاحبها.. وحين يشعر باليأس من الحصول على ما رغب فيه يغدو هاجياً له.. وذلك ما صنعه مع كافور الأخشيدي في مصر، فمن مدائحه فيه قوله:

إذا لم تنط بي ضـــيعة أو ولايـــة فجودك يكسوني وشَغُلكَ يسلبُ[٢١]

ثم يقول فيه -بعد ذلك- هجاء يشير فيه إلى أنه كان مضطراً إلى مدحه والثناء عليه، بعد خذلانه إياه، وتبرؤه من وعوده، فهو لا يأتي مكرمة بطبعه بل لابـــد أن تحتال عليه فتجذبه كما يجد الملاح حبل السفينة قائلاً:

لا ينجـــز الميعـــاد في يومـــه ولا يعي مـــا قـــال في أمـــسه
وإنمـــا تحتـــال في جذبـــه كأنـــك المـــلاح في قلـــسه
فلا تـــرجَّ الخـــير عنـــد امـــرئ مرت يدُ النخاس في رأســـه[٢٢]

وفعل الشيء نفسه -مع اختلاف في توجهه- مع سيف الدولة الحمـــداني في

(حلب) فبعد أن كان نديمه وشاعره المفضل على الآخرين، وصادحة قريحته بأروع القصائد في مدحه بطلاً مغواراً يحسب له الأعداء له ألف حساب، ولاسيما قوله:

يكلف سيف الدولة الجيش همـــه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم[٢٣]

لكنه حين شعر أن مدائحه تلك لم تأت أوكلها، قرر مغادرة بلاطه ومدينته، وهو يئن لا من ألم الفراق، بل مرارته في عدم إنصافه، وتحقيقه ما كان يصبو إليـــه، مودعاً ذلك الأسى في مخاطبته إياه قائلاً:

يا أعدل النـــاس إلا في معـــاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

يا من يعز علينـــا أن نفـــارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم[٢٤]

ولم يكن خطاب المتنبي هذا مجرد عدم إنصاف سيف الدولة له، بعد تطـــاول متشاعرين عليه في بلاطه وتحاملهم، إنما أحس أن هذا القائد لا يـــروم أن يعطيـــه سلطاناً كان ينشده، لذا قرر الرحيل بعد أن وجد العدم عنده، وأن ظل وفياً له ولم يلجأ إلى هجائه مثل ما فعل مع كافور.. ثم رحل إلى بلاد فارس مادحـــاً هـــذا، ومحجماً عن ذاك، ومعاتبا آخر.. حتى مقتله عام ثلاثة مئة وأربعة وخمسين للهجرة وهو عائد من شيراز إلى العراق على يد (فاتك بن أبي جهل الأسدي) بالقرب من (دير العاقول) في الجانب الغربي من سواد بغداد[٢٥].. وبمقتله أسدل الستار علـــى حياة شاعر مات جسداً، وظلت أشعاره حية يتداولها العلماء والنقـــاد والبـــاحثون بالدراسة والشرح والتحليل والنقد إلى يومنا هذا.

❑ نرجسية المتنبي وبواعثها

إن الباحث في سيرة المتنبي المستغرقة خمسة عقود طوال النـــصف الأول مـــن القرن الرابع للهجرة، ومنجزه الشعري بمطولاته وقصائده ومقطعاته.. يستنبط منها أنه كان نرجسياً سلوكاً وقولاً.

والشخصية النرجسية -من منظور علماء النفس- حالة مرضـــية أو عقـــدة نفسية، يغدو المصاب بها شديد الإعجاب بنفسه، وعظيم ثقته بها، وتفخيمه لها، مع

إحساسه بالتفوق على الآخرين، والترفع عنهم، واستصغارهم، مع تطلعه إلى إطرائهم، ونيل إعجابهم، وإشارتهم إليه بالبنان[٢٦].

آخذين في الحسبان أن النرجسية لا يصاب أو يتحلى بها الأفراد الاعتياديون -في الأغلب الأعم- إذ تتنامى في نفوس المبدعين أو الخارقين للعادة -في هذا الشأن أو ذاك- وذلك مدعاة شعورهم بالتفرد والتميز من جهة، وفخرهم بذاتهم وتعاليهم على الغير من جهة أخرى - متطلعين- في الوقت نفسه. إلى اعتلاء مكانة رفيعة ترضي غرورهم وطموحهم[٢٧].

ويبدو أن المتنبي لازمته النرجسية منذ تجاوزه العقد الثاني من عمره.. حين أدرك اتصافه بقدرات عقلية وفكرية ومعرفية، معززة بالذكاء والفطنة وسرعة البديهة وقوة الحافظة، تفوق -من منظوره- ما لدى الآخرين، وان كانت هذه المؤهلات سلاحاً ذا حدين، من حيث إنهاء شقاء للمتمتع بها، وراحة للمفتقد إليها، وذلك ما أقره المتنبي في هذا الخطاب الشعري:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[٢٨]

ثم أن طموحه غير المتناهي، وإقدامه على مبتغاه كإقدام السيل الذي لا يرده شيء تطلعاً إلى ما يصبو إليه من مقام رفيع.. ملمح من ملامح النرجسية، من حيث كونه طموحاً لا قانعاً، وجريئاً لا مستسلماً، ومتحدياً لا خائفاً متلمسين الإفصاح عن ذلك الإحساس بقوله:

وأقدمتُ إقدامَ الأتي كأن لي سوى مُهجتي أو كان لي عندها وترُ
ذَرِ النفس تأخذ وسعها قبل بَيْنها فمفترق جاران دارهما العُمرُ[٢٩]

فضلاً عن كون شاعريته التي لا يرى نظيراً لها عند أقرانه من الشعراء، مدعاة تحليه بالنرجسية في أقصى مدياتها، إذ كان لا يتواني من الافتخار بها، وتضخيم شأنها، والحط من شاعرية الآخرين، ولاسيما في مخاطبته هذا المتلقي أو ذاك ألاَ يبالي

إلا بشعره فهو المعول عليه، ولا يعدو شعر غيره سوى صدى لشعره، أليس هو القائل:

ودعْ كل صوت غير صوتي فأنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى[٣٠]

تلك هي بواعث نرجسية المتنبي - الموجزة في إحساسه بتفرده الفكري، وطموحه بعزيمة لا تلين ولا تفتر، وعبقرية شعرية، كلها مجتمعة تتيح له أن يكون سيداً لا مسوداً، وأمراً لا مأموراً، ومتبوعاً لا تابعاً.

بكلمة موجزة أن النرجسية تعني، حب العظمة بكل ما تعنيه الكلمة من معان ودلالات لا حصر لها.

والشخصية النرجسية - بعد هذا وذاك - تبتهج روحاً ونفساً للإطراء الذي يتناهى إلى أسماعها، وتبدو في أشد حالات الضيق والتوتر والانفعال، حين تتعرض للنقد والتجريح من هذا وذاك.

□ الاغتراب النفسي وعلاقته بنرجسية المتنبي:

تشير آراء علماء النفس إلى أن هناك من يشعر بالاغتراب النفسي بخاصة، مع أنه موجود في حشد كبير من الناس ويقيم معهم علاقات طبيعية، إلا أنه يشعر بعدم الارتياح والرضا عن النفس، وعجزه عن تحقيق أهدافه وقيل: «الاغتراب حالة تصاحبها معاناة وألم نفسي عميق تنتاب أولئك الذين يتميزون بالإحساس المرهف، ويتطلعون إلى كسب إعجاب الآخرين، وأن افتقروا إلى التعاطف معهم[٣١].

ويبدو أن التلاقي بين النرجسية والاغتراب النفسي كامن في تضخيم الذات والإعجاب الشديد بها أو قل غرورها اللامتناهي، وذلك ما يفضي بالنرجسي إلى تفرده أو غربته عن الآخرين واستصغار شأنهم، مع حاجته إليهم في تحقيق أهدافه فحسب[٣٢].

وتكاد تنطبق هذه المفاهيم على شخصية المتنبي إنساناً وشاعراً في آن..

إذ أفصحت أشعاره عن نفسية متحلية بالاغتراب النفسي قولاً وفعلاً.. فها هو يطلق العنان لقريحته بتأكيد غربته النفسية والمكانية والاجتماعية في قوله:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود
وما مقامي في أرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود[٣٣]

وزعم بعضهم أنه بهذه الأشعار، لقب بالمتنبي لإدعائه النبوة! وذلك اتهام خصومه وحساده، وحقيقة الأمر أراد تجسيم ما يعانيه من غربة بين أفراد مجتمعه فاستلهم الآيات القرآنية ليدل على حقيقة معاناته من غربته.. كالغربة التي عاناها النبي صالح عليه السلام بين قومه ثمود، والسيد المسيح عليه السلام بين اليهود.

وما يؤكد اغترابه النفسي في أهله وموطنه إشارته إلى أن النفيس ويعني (ذاته)، حيثما حل يبدو غريباً لفقد النظير له وذلك في قوله:

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا[٣٤]

ويذكر اغترابه ووحشته قائلاً:

بِمَ التعلل لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ[٢٩]

ومن مظاهر غربته النفسية، أنه دائم الشعور بالتفرد والتميز عن الآخرين، الذي يراهم لا يلون على شيء، وأن تحلو بأجساد ضخام، أما هو فيعد نفسه كالذهب في بعديه المادي والمعنوي، الذي وأن يغدو مختلطاً بالتراب، لكنه لا يحسب منه، وذلك ما أودعه في هذا المشهد الشعري:

ودهر ناسهُ ناس صغار وأن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرَّغام[٣٦]

ولا يتوانى المتنبي بتأكيد نرجسيته واغترابه النفسي من أعلاء شأنه على من ينتسب إليهم، عادّهم متشرفين به، لا متشرفاً بهم، ومفتخراً بنفسه لا بهم.. متأملين هذا الاغتراب وهذه النرجسية في قوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي[٣٧]

وأبرز ملامح الاغتراب النفسي عند المتنبي، أنه لا يشعر بالرضا عن نفسه، وهنا يكمن الاغتراب الذاتي، فضلاً عن الاغتراب المجتمعي -إن جاز التعبير- وذلك ما نتأمله في تصريحه المودع في خطابه الشعري الموجه إلى ممدوحه سيف الدولة الحمداني، ولاسيما قوله:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا[٣٨]

وحسبنا بعد ذلك كله، استقراء أشعاره لنثبت من مضامينها تحليه بالنرجسية، ومعاناته من اغتراب نفسي.. موزعين ما نرمي تأكيده بين المحاور الآتية:

□ إعلاء شأن ذاته:

من يتأمل أشعار المتنبي، سيقرأ في تضاعيف قصائده حيزاً لا يستهان به - كماً نوعاً- بشأن تفخيمه ذاته وشدة الإعجاب بها، وذلك مكمن نرجسيته من جهة، واغترابه عن الآخرين من جهة أخرى بمعناه الابتعاد والافتراق والتفرد.

يلتمس ذلك باستعمالاته ضمير الـ(أنا) أو المتكلم بأنواعه، المنفصلة والمتصلة، الظاهرة والمستترة، في الجانب الشكلي من الأشعار، أما دلالتها فإفصاح عن ذاتية تزيح ما يعتريها من إحساس بالضعف والسكينة والاستسلام، والضد يبدي حسنه الضد - كما يقال- وهذا الضد تحول إلى قوة محركة لعبقريته الشعرية، ومجال للنفور مما يحول دون إبراز كبريائه وشموخه وفضائله، فتصدح قريحته بكونه من رحم الشجاعة والكرم.. ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، خبرته الفلوات، ودانت له القوافي، والخيل جربته فارساً، والجبال الشاهقة عرفته قاطعاً.. مودعاً هذه الفضائل في قوله:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السّخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي أنا ابن السروج أنا ابن الرِّعان[٣٩]

ويعاود المتنبي تأكيد هذه الفضائل، مع إشارته إلى ما تسطره الأقلام في الصحائف من أشعاره أو قصائده، قائلاً:

الخيل والليل والبيـــداء تعـــرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم[٤٠]

ثم يفصح عن جرأته وعدم خشيته من قطعه القفار وحيداً علـــى حجارتهـــا الصلبة، ووحوشها المفترسة، وذلك مدعاة دهشة تلك الجبال الواطئة الارتفاع مـــن منظور أنسنته لها، حيث يقول:

صحبتُ في الفلوات الوحش منفرداً حتى تعجب مني القُور والأكم[٤١]

وديدن النرجسي شعوره بالتفرد والتميز عن بقية الناس، وهذا ما اتصف بـــه المتنبي -في معظم أشعاره- فيرى نفسه أنه يشعر أن منـــزلته أطيب مـــن منـــــزلة الآخرين، وأسعدته راحلته حين أوصلته إلى ممدوحه، وشعره قدرت قيمتـــه بـــأوفر الأثمان، وذلك كله لم يبلغه أحد من الناس.. مودعاً هذا الإحساس به في قوله:

أنا من جميع الناس أطيبُ منـــزلاً وأسر راحلة واربح متجـــرا[٤٢]

ويضفي المتنبي على نفسه ثقته بنفسه، وقوة شكيمته، من حيث أنه لا يعجـــز عن تحقيق أمر بعينه، في تقريبه البعيد، وتهوين الشديد، ناطقاً في هذا الشأن:

وإني إذا باشـــرت أمـــراً أريـــده تدانت أقاصيه وهان أشـــدّه[٤٣]

وتصدح قريحته في تأكيد تلك النرجسية في تشبيه نفسه بالصخرة في الـــوادي التي لا تجرفها السيول، وتجرف غيرها، وكنجمة الجوزاء علواً في منطقـــه وســـداد رأيه، قائلاً:

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت وإذا نطقت فـــأنني الجـــوزاء[٤٤]

وهذه الأنا الذاتية، عدت ملازمة في أشعاره، يبث منها تميزه عن الآخـــرين، حيث يرى أنه من قوم تأبى نفوسهم السكنى في أجسادهم، مـــتطلعين إلى العـــلاء والرفعة، ورافضين الذل والهوان، في قوله:

وإني لمن قـــوم كـــأن نفوســـهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما[٤٥]

تلك هي أبرز تشظيات نرجسية المتنبي واغترابه النفسي في الأبعاد الإنسانية المحضة.

❑ الفخر بالأنا الشاعرية:

أسهم إحساس المتنبي بتفوق شاعريته على غيره من شعراء عصره بخاصة إلى تنامي مشاعر الغرور والتعالي في نفسه مفصحاً عن ذلك في عدد غير قليل من خطاباته في تضاعيف قصائده، فهو تارةً يخيل إليه أن زمنه منشد قصائده، لأن الألسنة لا تفتأ ترددها في كل وقت وحين، مودعاً هذا الفخر بشاعريته في قوله:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا[٤٦]

ولتأكيد هذه النرجسية، يبدو له أن شاعريته أعلى مرتبة وتفوقاً من سائر الناطقين شعراً، معززاً تصوره باختياره الشمس إشراقاً ومرتكزاً كمعادل موضوعي لإشعاره، وغيرها لا تعدو سوى أفلاك تابعة لها، ودائرة حولها قائلاً:

إن هذا الشعر في الشعر ملكْ سار فهو الشمس والدنيا فلكْ[٤٥]

ويتنامى شعور المتنبي تفخيماً بشاعريته، في رسوخ قناعته أن من لا يقرأ الشعر سيقرأ شعره بإعجاب ودهشة، وسيحقق التأثير والاستجابة والمتعة والفائدة في إسماع من لا يصغي إلى الشعر أساساً، وذلك ما يستشف من دلالة مفردتي (الأعمى) و(الأصم) في قوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم[٤٨]

ومن مظاهر نرجسيته الشعرية -إن جاز التعبير- إن قريحته ما إن تصدح بالأشعار حتى تغدو بين تمثل وسماع، بتجاوزها حدود مكانها من جبال وبحار إلى ما وراءها، وذلك ما أودعه في قوله:

قواف إذا سرن عن مقولي وثبن الجبال وخُضن البحارا[٤٩]

ولا يتوقف المتنبي عند حدود الفخر بشاعريته في أقصى مدياها، إنما تجاوز ذلك إلى ازدراء نظرائه الشعراء.. وذلك في عقده مقارنة - لدى مخاطبته - ممدوحه (سيف الدولة الحمداني) - بين أشعاره التي تستحق إطراء وتكريماً واستماعاً دون

غيرها، وأشعار أولئك الذين يسمون شعراء مجازاً، وهي لا تعدو سوى ترديد أو صدى لها..

وذلك حيث يقول:

أجزني إذا أُنشدتَ شعراً فإنما بشعري أتاك المادحون مُردَّدَا

ودعْ كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى[٥٠]

ومن ملامح فخره بشاعريته، أنه يرى أن أشعاره - دون غيرها - يكد المتلقون، وينازع بعضهم بعضاً في استيعاب مراميها -وهو في شغل شاغل عنهم- فهو القائل:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم[٥١]

ولا يرى المتنبي - في الوقت نفسه - شاعرية الآخرين تفوق شاعريته، حتى طاب له نعتهم بالمتشاعرين، الذين غدا داء لهم يسقمون به حسداً، لذا لا يمكن أن يحمدوه، قائلاً:

أرى المتشاعرين غرّوا بدمي ومن ذا يَحمَدُ الداءَ العُضالا[٥٢]

وفي معرض تفرده بشاعريته، يفخر أن قصائده المنظومة في متلق بعينه، لا تستقر في موضع من الأرض، فالألسنة تتناقلها لجودتها فتسير في الآفاق، وذلك حيث يقول:

وعندي لك الشُّردُ السائرا ت لا يختصصن من الأرض دارا[٥٣]

هذا الإحساس بعبقريته الشعرية في تعاليه على الشعراء، واغترابه عنهم كائن حين لا يجد فيهم نظيراً له.

❑ شكوى المتنبي.. في نرجسيته واغترابه النفسي:

من المشاعر المتشظية عن الشخصية النرجسية واغترابها النفسي، أنها كثيرة الشكوى من الزمن أو الدنيا أو الناس ومن القاصي والداني ومرد هذه الشكوى..

أن النرجسي يشعر أنه مغبون ومظلوم ومتجاوزة حقوقه، ومستلبة حظوظه[٥٤]، على الرغم من تمتعه بمقدرة وفهم ووعي وحسن تدبر، لا بل غدت هذه المواصفات وبالاً على من يتحلى بها.. أليس هو القائل إفصاحاً عما يلاقيه من شقاء إزاء وعيه المتفتح، وغيره متنعماً بما هو عليه من جهالة، وذلك ما عناه في قوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الشقاوة في الجهالة ينعم[٥٥]

والتصريح بالشكوى من الدهر.. ديدن النرجسي، وذلك في شكواه من الأقدار التي لا تأتي بما تشتهي نفسه، ولاسيما إذا كثرت واشتدت، وأوجدت قلبا لم يبق منه موضع إلا أصابه سهم موجع، حتى صار في غلاف من السهام، وغدا تعاقبها يقع نصالها على نصال، مصرحاً في هذا الشأن قائلاً:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال[٥٦]

وإدعاء الشخصية النرجسية بالإخلاص والمصداقية تارة واتهام الآخرين بالكذب والتدليس تارة ثانية، والشكوى ممن لا يميز بين هذين النوعين من البشر تارة ثالثة، كان ذلك أبرز معاناتها، والشعور باضطهادها، وإلحاق الأذى بها، ملتمسين هذه التوجهات في الشكوى التي أسمع صداها ممدوحة (سيف الدولة الحمداني).. حين رآه خصماً وحاكماً، فكيف ينتصف منه، ويرد مزاعم أولئك الحساد المرتبصين به، وأن كان ذلك يرضيه فلا يجد ألماً من جرح نفسي أحدثه أولئك المبغضون، صادحة قريحته في هذه المعاناة قائلاً:

مالي أكتم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم
يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم[٥٧]

ويعاود المتنبي ذو الشخصية النرجسية بين حين وآخر، الشكوى من الزمن،

وذلك في تمنيه استقامة الأحوال وثباتها في دنياه، مع إدراكه أن الزمن لا يبلغ هـذا من نفسه، لأنه لا يثبت على حال، مفصحاً عن أمنيته أو قل شكواه في قوله:

أريد مـن زمـني ذا أن يـبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن[٥٨]

وكان جل معاناة المتنبي وشكواه من الحساد المتربصين به، حتى إنهم في تصوره أنه كان محسوداً مما هو شاك مما لقيه من نوازل الدنيا وأحوالها فيقول:

ماذا لقيت من الـدنيا وأعجبـه أني بما أنا شاك منه محـسودُ[٥٩]

وفي امتعاضه من الحساد والشكوى منهم، يشير في أحد خطاباته الشعرية إلى أن الحساد أيديهم فارغة من نعمة ممدوحه، ويده مملوءة منه، ما يزيـدهم حقـداً وبغضاً.. متأملين ذلك في قوله:

فلا زلتُ ألقى الحاسدين بمثلـها وفي يدهم غيضٌ وفي يديَ الرِّفد[٦٠]

ويلتمس المتنبي عذراً للوم حساده لعلمه بتخلفهم عنـه، وظهـور نقـصهم بمؤهلاته، أي هو سبب حسد الحساد قائلاً:

إني وأن لمـت حاسـدي فمـا أنكـر أني عقوبـة لهـم[٦١]

وهواجس الشخصية النرجسية غالباً ما تستشعر بالخطر والاستهداف من هذا أو ذاك، والمتنبي لم يشذ عن هذه القاعدة، حين يرى في أسفاره بخاصة إلى هذا البلـد أو ذاك، خطراً يحدق به، من حساده وخصومه والحاقدين عليه، ومثلهم لابد أن يكـون عدواً لمثله، مودعاً هذا الشعور الممتزج بالشكوى من أولئك المتربصين به في قوله:

لا أقتري بلـداً إلاّ علـى غَـرَرٍ ولا أمر بخلق غير مُـضْطَغِن[٦٢]

وتبدو غربته المكانية -في أسفاره من بلد إلى آخر - موازية لغربته النفـسية.. فَهَو يرى أنفة نفسه في التغرب، حتى لا يستعظم غيره عليه، لأنه لا يستعظم علـى نفسه أحداً، وذلك مكمن تغربه فراراً من أن يحكم عليه أحد إلا الله الذي خلقـه، قائلاً في هذا الشأن:

تغرّب لا مستعظماً غـير نفـسه ولا قابلاً إلا لخالقه حُكمـا[٦٣]

وشكوى المتنبي من الظلم كائنة في قناعته، أنه يرى أن الظلم طبيعة في الإنسان موروثه، فإذا امتنع منه فما ذلك إلاّ لعلة فيه، وذلك ما يستشف من قوله:

والظلم من شِيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يَظْلِمُ[٦٤]

وكثيراً ما يحاول المتنبي البحث عن ذاته وتحقيق ما يتمناه، فنراه يأمل أن يصل إلى حال ترضيه، وتلك الحال تخلف رجاءه فلا يصل إليها، ويطالب دهره بحصولها فيماطله في تبليغه إياه.. وذلك أبرز مظاهر غربته من جهة وشكواه مما هو فيه من جهة أخرى قائلاً:

لله حال أرجيها وُتخلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني[٦٥]

وفي الختام نقول إن القارئ لشعر المتنبي لا يجد عناء كبيراً في تلمس شخصيته، وعقدها النفسية - نرجسية واغتراباً، من حيث حب الذات وتعظيمها، والشعور بالتفرد الذي لا يعدو سوى اغتراب النفس عما حولها من الكائنات الإنسانية التي ينشدها وسيلة لغاية تحقيق أمانيه في المجد والعلا والسمو، مع التعالي عليها. ذلك هو المتنبي إنساناً أولاً وشاعراً أخيراً شأنه في ذلك شأن كل عبقري في كل زمان ومكان، الذي يتيح له الغرور إنْ تملكه أن يغدو نرجسياً بكل ما تعنيه هذه الصفة من معان.. مفضية هذه النرجسية إلى الاغتراب النفسي الذي لا يعدو سوى صراع مع ذاته ومع الآخرين، بكلمة. أدق لا يبدو راضياً عن نفسه ولا عن الآخرين.. وذلك هو التيه بعينه، الذي مرده الإفراط في حب ذاته وفي تقديره لها واعتزازه بها، وهنا تكمن أهمية دراسة المتنبي من منظور المنهج النفسي أو من الوجهة النفسية.. لكونه من العباقرة المعدودين في الفن الشعري بخاصة، وشخصية إنسانية متفردة بعامة، وصدق ابن رشيق القيرواني في وصفه (مالئ الدنيا وشاغل الناس).

هوامش الفصل الثاني ومصادره

(١) نص الصحيفة الكامل في البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٨٥: ١/١٣٦-١٣٨.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: يحيى الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٧٢: ١/٢١٧-٢١٨.

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦: ص٧٦.

(٤) انظر: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سويف، مصر، ١٩٥١: ص٩٦.

(٥) انظر: صور الشعراء الجاهليين من الوجهة النفسية، د. أحمد إسماعيل النعيمي، ضمن كتاب «الشعر الجاهلي - منطلقاته الفكرية وآفاقه الإبداعية -: ص١٥٥.

(٦) انظر: التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، القاهرة، ١٩٦٣: ص٥٣.

(٧) انظر: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوي، مصر، ١٩٧٣: ص٢١ وما بعدها.

(٨) انظر: الحطيئة، أيليا حاوي، بيروت، ١٩٦١: ص٢١.

(٩) انظر: الشعراء الصعاليك، يوسف خليف، القاهرة، ١٩٥٩: ص٥٦.

(١٠) انظر: جميل بثينة والحب العذري، د. خريستو نجم، بيروت، ١٩٨٢: ص٦٦.

(١١) نفسية أبي نواس، د. محمد النويهي، القاهرة، ١٩٧٠: ص١١.

(١٢) ابن الرومي، محمد عبد الغني حسن، نوابغ الفكر العربي، مصر، ١٩٦٠: ص٢٣.

(١٣) انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، بيروت، د.ت: ٤/ص١٠٢.

(١٤) انظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، د.ت: ص٢٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٠-٢١.

(١٦) انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، تحقيق: د. مفيد محمد تيمية، بيروت، ١٩٨٣: ١/ص١٤١.

(١٧) مع المتنبي، طه حسين، القاهرة، ١٩٦٠: ص٦١.

(١٨) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، العلامة الشيخ ناصيف اليازجي، دار صادر، بيروت، د.ت: ١/٣٤٦.

(١٩) المصدر نفسه: ١/ص٣٨٢.

(٢٠) المصدر نفسه: ١/ص٣٠.

(٢١) المصدر نفسه: ٢/ص٣٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه: ٢/ص٣٩٣.

(٢٣) المصدر نفسه: ٢/ص٢٠٢.

(٢٤) المصدر نفسه: ٢/ص١٢٠.

(٢٥) وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨: ١/٣٣.

(٢٦) النرجسية، محمد سليمان حسن، مجلة المعرفة، العدد ٤٦٠، دمشق، ٢٠٠٢: ص٢٦.

(٢٧) حزيستو نجم، الترجسية في آداب نزار قباني، بيروت، ١٩٨٣: ص١٥٦.

(٢٨) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: ١/ص٣٠.

(٢٩) المصدر نفسه: ١/٣٦٩.

(٣٠) المصدر نفسه: ٢/١٨٥.

(٣١) انظر: ابن باجة وفلسفة الاغتراب النفسي والاجتماعي، محمد إبراهيم الفيومي، بيروت، ١٩٩٩: ص٢٠٠.

(٣٢) الاغتراب، اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، د. قيس النوري، مجلة عالم الفكـــر، الكويت، م١٠، العدد١، ١٩٧٩: ص١٦.

(٣٣) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: ١/١١٦.

(٣٤) المصدر نفسه: ١/٣٥٧.

(٣٥) المصدر نفسه: ٢/٢٣١.

(٣٦) المصدر نفسه: ٢/٣٤٢.

(٣٧) المصدر نفسه: ٢/ص٤٤١.

(٣٨) المصدر نفسه: ١/١٣٢.

(٣٩) المصدر نفسه: ٢/١٢١.

(٤٠) المصدر نفسه: ٢/١٢١.

(٤١) المصدر نفسه: ٢/١٢١.

(٤٢) المصدر نفسه: ٢/١٥٦.

(٤٣) المصدر نفسه: ١/٣١٨.

(٤٤) المصدر نفسه:

(٤٥) المصدر نفسه: ٢/١٨٤.

(٤٦) المصدر نفسه: ٢/١٣٧.

(٤٧) المصدر نفسه: ٢/١٢٠.

(٤٨) المصدر نفسه: ٢/١٧٥.

(٤٩) المصدر نفسه: ٢/١٨٥.

(٥٠) المصدر نفسه: ٢/١٢٠.

(٥١) المصدر نفسه: ١/٢٩٣.

(٥٢) المصدر نفسه: ٢/١٣٤.

(٥٣) المصدر نفسه: ٢/١٧٥.

(٥٤) انظر: علم نفس الشخصية، فريح سويد الغزي، الكويت، ١٩٨٠: ص١٢٦.

(٥٥) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطبيب: ١/ص١٠.

(٥٦) المصدر نفسه: ٢/١٢٠.

(٥٧) المصدر نفسه: ٢/١١٨.

(٥٨) المصدر نفسه: ٢/ص٣٤٣.

(٥٩) المصدر نفسه: ٢/ص٣٩٧.

(٦٠) المصدر نفسه: ١/٢٠٨.

(٦١) المصدر نفسه: ١/١/٤٧.

(٦٢) المصدر نفسه: ١/ص٣٣٦.

(٦٣) المصدر نفسه: ١/٣٤٦.

(٦٤) المصدر نفسه: ١/ص٩.

(٦٥) المصدر نفسه: ١/٣٣٨.